

البعد النفسي في ديوان ليس إلا.. شعر لحسين أحمد الزيداني دراسة تحليلية

**The psychological dimension in Diwan is nothingbut boetry by
Hussein Ahmed AlZaydani an analytical study**

د/ بتول حسين مبارك

Dr. Batool Hussain Mobarki

أستاذ مساعد كلية الفنون والعلوم الإنسانية قسم اللغة العربية

جامعة جازان- المملكة العربية السعودية

bmobarki@jazanu.edu.sa

ملخص البحث

ارتكز الباحث على استجلاء معالم البعد النفسي وجمالياته ودلالاته في ديوان (ليس إلا.. شعر) للشاعر حسين أحمد الزيداني، بغية الوقوف على الرابط بين البعد النفسي والنص الشعري ومدلولات هذا الرابط وانعكاسه على عناصر النص، فقد تمثل هدفاً رئيساً للوصول إلى نتائج البحث، وقد اتضحت معالم هذا الهدف في إبراز أثر البعد النفسي للشاعر حسين أحمد الزيداني في ديوانه، وإظهار الجمليات الفنية الناتجة عن تحكم البعد النفسي في إنتاج النص الشعري، وتحقيقاً لذلك، اعتمد الباحث على عناصر محددة، تجلت أمامه مناسبتها وفعاليتها لتحقيق هذا الهدف المذكور والمنجز لدراسته، حيث قسم دراسته إلى مقدمة ومدخل ومبحثين، خصص التمهيد لدراسة البعد النفسي والوجدان برؤية نقدية تحليلية، والمبحث الأول تطرق فيه لعبات النص الشعري ودلالات البعد النفسي فيه، والمبحث الثاني أفرده للأثر النفسي على النص الشعري.

مزج الباحث بين المنهج الاستقرائي التحليلي والمنهج النفسي في دراسته، وقد طبقهما على نماذج نصية من ديوان الشاعر، مع جلب ما يدعم رؤيته من المؤلفات النقدية المتصلة بدراسته، وقد أردف بحثه بخاتمة عرض فيها لأهم النتائج التي توصل إليها، ومنها: أن النص الشعري عالم تتسلط عليه العديد من الأمور التي قد تضفي عليه غموضاً أو رمزية مقصودة، أو قد تتسلط عليه بعض الإيحاءات التي تشي بمباشرة وتلقائيتها، وكل نمط له أسسه الفنية وعناصره المفصحة عن جمالياته، والغاية في أي من أنواع النصوص الشعرية هو الدربة والتمرس بالبعد النفسي للشاعر ومعرفة الظروف العامة التي أنتج فيها النص.

الكلمات المفتاحية: البعد النفسي - الزيداني - الوجدان - العنوان - الموضوع الشعري.

Abstract

The researcher focused on uncovering the features of the psychological dimension, its aesthetics, and its implications in the poetry collection *Nothing*

But... Poetry by the poet Hussein Ahmed Al-Zaidani. The aim was to explore the connection between the psychological dimension and the poetic text, and to understand how this connection influences the elements of the text. This served as the main goal of the research, seeking to highlight the impact of Al-Zaidani's psychological dimension on his collection, as well as the artistic aesthetics derived from this psychological influence on the production of the poetic text. To achieve this, the researcher relied on specific elements, which were found to be effective in fulfilling the stated objective. The study is divided into an introduction, a prelude, and two chapters. The prelude focuses on analyzing the psychological and emotional dimensions with a critical and analytical perspective. The first chapter discusses the textual thresholds of the poetic work and the psychological dimensions they convey, while the second chapter is dedicated to the psychological impact on the poetic text itself.

The researcher combined both the analytical inductive method and the psychological approach in the study, applying these methods to selected textual samples from the poet's collection, and supporting the findings with relevant critical literature. The research concludes with a summary of key findings, including that the poetic text is a realm influenced by various factors that may add intentional ambiguity or symbolism, or reveal hints of directness and spontaneity. Each type has its own artistic foundations and elements that reveal its aesthetics. The ultimate goal of any type of poetic text is to gain mastery over the poet's psychological dimension and to understand the general circumstances under which the text was created.

Keywords: Psychological Dimension, Al-Zaidani, Emotion, Title, Poetic Theme

مقدمة

تعددت المناهج والنظريات التي عُنيت بدراسة النص الشعري قديماً وحديثاً، وفي العصر الحديث على وجه التخصيص وجدنا أنفسنا أما عدد كبير من هذه المناهج التي ورد إلينا أغلبها من الغرب، وقد حاول بعض النقاد منذ النصف الأول من القرن المنصرم تكييف هذه المناهج والنظريات وتطبيقها على الشعر العربي القديم، مركّزين على رؤيتهم القائلة بأنها رؤى نقدية عامة

قابلة للتطبيق على الإبداع الشعري في أية لغة أو لسان، وامتاز هذا الفصل بإثبات المرجعية الغربية لما يستلهمه من نظريات ومصطلحات نقدية، والفصل الآخر التهم تلك النظريات النقدية الغربية، وعمد إلى التمهيد والتدقيق والبحث في جزورها ومنابعها، فوفقوا على أسس وأقوال عامة تشير إلى محددات بعضها، وتظهر الريادة النقدية العربية بلا أدنى شك.

من ذلك ما نجده ماثلاً في ثنايا المؤلفات النقدية القديمة ويدل دلالة واضحة على حضور البعد النفسي فيها ولو عن طريق الإلماح أو الإشارة، ولكن الغاية نقف على مرجعة المناهج التي يعتمد عليها الباحث أو الناقد لتطبيقها على إنتاج إبداعي ما، وليست الغاية إظهار النزاع أو إثبات الجذور الأولى للبعد النفسي أو المنهج النفسي في الدرس النقدي والأدبي وأبعاده، ولعلنا نسوق في ثنايا بحثنا ما يدل على فطنة الناقد العربي وتبصره بالأمور وإدراكه للبعد النفسي للشاعر وأثره على نصه أو نصوصه الشعرية إجمالاً.

مثلت دراسة العقاد لابن الرومي ورصد العوامل النفسية المتسلطة على نتاجه الشعري ركيزة مهمة في بدايات الربط بين الدراسة النفسية والإبداع الشعري، وقد أظهر العقاد فيه براعته التحليلية المتخللة في ثنايا النص، والمفصحة عن الدلالات الغائرة التي قد لا تتجلى للقارئ من الوهلة الأولى، وقد أرسى العقاد بكتابه هذا القاعدة العربية للدراسات الأدبية النفسية، وذل العقبات في سبيل ترسيخ القيمة النفسية للشاعر وإظهارها من شعره.

بهذه الرؤية العامة؛ هدفت إلى سبر أغوار ديوان (ليس إلا.. شعر) للشاعر حسين أحمد الزيداني، عن طريق التعرف على بعده النفسي المتسلط على نصوصه الشعرية، وأثره في إبراز جماليات النص الشعري، رغبة في جلب الروابط الفنية الناتجة عن الحالة النفسية للشاعر ونصه أو منتوجه الذي خرج من وجدانه وفقاً لنزعة نفسية محددة، لها عواملها وأسبابها في عقلية، ولها دلائلها وجمالياتها في نصه أو نصوصه الشعرية، وهذا ما حدا بي أن أعنون البحث بـ(البعد النفسي في ديوان ليس إلا.. شعر لحسين أحمد الزيداني: دراسة تحليلية).

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تتمثل أهمية هذا الموضوع في مجموعة من الأمور التي يعكس الرؤية العامة له، إذ يندرج هذا البحث في إطار الدراسات التي أولت عنايتها بالجانب النفسي للشاعر، بالاعتماد على منتوجه الشعري، ودون أي إلمام بتفاصيل حياته الحقيقية، كما أن الباحث يروم من دراسته هذه أن يتكامل مع الدراسات المماثلة في سبيل الوصول إلى حقائق فعلية تساهم في الدراسات النقدية والمعرفة، وكذلك رغبة الباحث في استكناه الغامض وحب المغامرة التي تقوم على البحث والتنقيب في ثنايا النص الأدبي للوصول إلى مدى تحقق الظاهرة من عدمه.

الأهداف:

تشكلت مجموعة من الأهداف التي قصد الباحث إلى تحقيقها من دراسته، وهذه الأهداف انبثقت بصورة منطقية عن محددات العنوان وأبعاده، إذ عرّف لي الهدف الرئيس من الدراسة بعد أن تحددت في ذهني معالم العنوان، ويتمثل في: إبراز أثر البعد النفسي للشاعر حسين أحمد الزيداني في ديوانه ليس إلا.. شعر، وإظهار الجماليات الفنية الناتجة عن تحكم البعد النفسي في إنتاج النص الشعري، وثمة بعض الأهداف الفرعية المنبثقة عن هذا الهدف الرئيس أجملها في الآتي:

- إظهار الرابط الفعلي بين البعد النفسي للشاعر ووجدانه.
- التعرف على دلالات البعد النفسي للشاعر في صياغة عنوان النص أو الديوان.
- الوقوف على معالم البعد النفسي الباعث على الفرح والسرور ودلالاته في صياغة العنوان والنص.
- الوقوف على معالم البعد النفسي الباعث على الحزن والألم ودلالاته في صياغة العنوان والنص.
- إبراز أثر البعد النفسي ودلالاته البادية في تشكيل الموضوع الشعري وإبراز كلية النص وتكامله.

الإشكالية:

تتقاطع الإشكالية العامة التي نسعى لحلها في هذه الدراسة مع الهدف الرئيس منها بصورة منطقية، إذ تنهض الدراسة وتقوم على تساؤل عام مفاده: ما دلالات البعد النفسي للشاعر حسين أحمد الزيداني في ديوانه ليس إلا.. شعر؟ وهل نقف على عناصر فنية وجمالية ناتجة عن تحكم البعد النفسي في إنتاج النص الشعري لديه؟ ونتج عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية نجملها في الصيغ الآتية:

- هل ثمة رابط بين البعد النفسي للشاعر ووجدانه؟
- ما دلالات البعد النفسي للشاعر في صياغة عنوان النص أو الديوان؟
- كيف نقف على معالم البعد النفسي الباعث على الفرح والسرور ودلالاته في صياغة العنوان والنص؟
- هل نجد تأثيراً للبعد النفسي الباعث على الحزن والألم في صياغة العنوان والنص؟
- ما دلالات تأثير البعد النفسي على تشكيل الموضوع الشعري وإبراز كلية النص وتكامله؟

منهج البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن نقتفي أثر المنهج الاستقرائي التحليلي، الذي نعنى من خلاله باستقراء النقول النظرية المتعاقبة مع موضوع البحث، وتحليلها برؤية نقدية، ودمج المنهج النفسي في أثناء تعرضنا للنماذج النصية من ديوان الشاعر، بغية الوقوف على بعده النفسي المستلطف عليه حال إنتاجه النص، وجاء هذا التطبيق على مستوى العنوان والنص، إذ تحدت الباحث بدراستهما في هذا البحث.

الدراسات السابقة:

لم يقف الباحث على دراسة تناولت البعد النفسي في ديوان الشاعر حسين أحمد الزيداني (ليس إلا.. شعر)، فعنوان الدراسة بمحدداته المذكورة لم يسبق دراسته أو التعرض لإحدى جوانبه من قبل الباحثين والمتخصصين في الدراسات الأدبية والنقدية، غير أن استجلاء معالم البعد النفسي لدى الشعراء والأدباء بصورة عامة حاضرة في العديد من الدراسات التي تدل عليها دلالة واضحة، وباعتبار أن الشاعر وديوانه المذكور لم يتطرق إليه باحث -حسب اطلاعي وبحثي- من الوجهة النفسية؛ فلا نرتكز على دراسات سابقة مباشرة، وسأقوم بسرد بعض الدراسات التي تعرضت لدراسة البعد النفسي بصورة عامة، وهي كالتالي:

- هاشم صالح مناع، البعد النفسي وأثره في التعبير عن الزمن: طول الليل في الشعر الجاهلي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، ١٥٤، ١٩٩٨ م.
 - مصطفى بشير القط، البعد النفسي للصورة الشعرية، مجلة فكر وإبداع، ج ٥٢، ٢٠٠٩ م.
 - طاهرة عبد الخالق اللواتي، جماليات البعد النفسي في شعر السياسة الداخلية عند بدر شاكر السياب، وأمل دنقل، ومحمود درويش، مجلة البحث العلمي في الآداب، جامعة عين شمس، ع ١٦، ج ٥، ٢٠١٥ م.
 - صفاء عبيد حسن الحفيظ، البعد النفسي في ثنائيات المكان عند الشعراء العراقيين (١٩٩٠ م: ٢٠٠٣ م)، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة بابل، مج ٢٣، ع ٤٤، ٢٠١٦ م.
 - محمد السيد حسن حسين، البعد النفسي للشخصية الروائية: قراءة نقدية في ثالث وتعويدة لزوين الكلباني، مجلة كلية التربية في العلوم الإنسانية والأدبية، جامعة عين شمس، مج ٢٣، ع ٣، ٢٠١٧ م.
 - محمد عبد الدايم الباجوري، البعد النفسي في شعر مالك بن الربيع التميمي، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ع ١١٣، ٢٠١٨ م.
 - رنده علي حسين السبتي، البعد النفسي لشخصيات علي عبد النبي الزبيدي المسرحية، المجلة العربية لدراسات وبحوث العلوم التربوية والإنسانية، مؤسسة حنان درويش للخدمات اللوجستية والتعليم التطبيقي، ع ٣، ٢٠١٦ م.
 - صالح بن سالم بن أحمد الحارثي، البعد النفسي في رواية رائحة الفحم لعبد العزيز الصقعي، مجلة الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، كلية الآداب، جامعة ذمار، عدد ١٣، ٢٠٢٢ م.
 - ندى حسين حسن حسين، البعد النفسي في قصص الربيع عند تامر إبراهيم، الرؤية والتأويل، مجلة بحوث، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس، مج ٣، ع ٥٤، ٢٠٢٣ م.
- هذه مجموعة من الدراسات التي تعرضت لدراسة البعد النفسي على المبدع في منتوجه الإبداعي، وقد قصدت إبراز المغاير في إبراز تطبيق البعد النفسي على أي من الأنواع الأدبية، وقد رتبته من الأقدم للأحدث وفق النوع الأدبي، فابتدأت بالدراسات التي طبقت على الشعر، وثبتت بالدراسات التي اعتمدت على البعد النفسي في الدراسات الروائية أو المسرحية أو القصصية، وقد يظهر الفارق بين مجمل هذه الدراسات في طريقة العرض وعناصر الدراسة، وكذلك يكمن الفارق الأبرز في الديوان الشعري الذي اعتمدت عليه، مع وجود شيئاً من التقاطع والاتفاق بين دراستي وهذه الدراسات بجمليتها في أحد محددات العنوان المتمثل في البعد النفسي، غير أنني تطرقت للشق النظري والتطبيقي برؤية مخالفة عما سارت عليه هذه الدراسات بجمليتها.

خطة البحث:

مقدمة.

مدخل: وجدان الشاعر والبعد النفسي.

المبحث الأول: دلالات البعد النفسي في عتبة العناوين الداخلية.

المطلب الأول: البعد النفسي في العناوين الدالة على التفاؤل والأمل.

المطلب الثاني: البعد النفسي في العناوين الدالة على الحزن والألم.

المطلب الثالث: البعد النفسي في العناوين الدالة على الوجدان الجماعي.

المبحث الثاني: جماليات البعد النفسي في النصوص الشعرية.

المطلب الأول: الأثر النفسي للخطاب الشعري الباعث على التفاؤل.

المطلب الثاني: دلالات الخطاب الباعث على الألم وألمه.

المطلب الثالث: البعد النفسي وأثره في تشكيل الموضوع الشعري والنص الكلي.

الخاتمة، ثم قائمة المصادر والمراجع.

مدخل

وجدان الشاعر والبعد النفسي

ثمة رابط قوي بين الباعث النفسي والنص الأدبي أيًا كان نوعه، إذ يتسلط ذلك الباعث على الأديب فيعمد إلى تشكيل وجدانه، ويوجه نظره تجاه الأشياء، وتلك النظرة تتشكل في النصوص نابضة حية لأنها تستقي حرارتها من ذلك الوجدان المتوهج والمليء بالرؤى المختلفة والمتباينة، وهذا يمثل نقطة الالتقاء بين الشاعر والمتلقي، ذلك الذي يقف على وهج النص ويستشعر حرارته ويصوغ خطابه بما ورد إليه من خواطر، أملاها عليه النص وفرضها وجدان الشاعر وصدق تعبيره وتصويره.

إن التجربة الشعرية - بالتعبير التراثي - عاكس صادق لما يدور بخلد الشاعر وما يشكل وجدانه، فلكل نص تجربته الخاصة التي تشكل معالم الصورة النفسية التي يولد من رحمها، لذا نجد النص "يعكس بوضوح حالته النفسية التي أملت به، ويوقفنا على البعد النفسي لأعماق الشاعر"^(١)، وهذا قد لا يتحقق إلا في ذهن المتلقي الناقد، الذي يتماهى مع ذلك المعنى الساري في خلال النص، مستشعرًا دلالاته ومتوحدًا بوجدانه.

إن عملية إنتاج النص تنبع عن رؤية نفسية تحول في وجدان لشاعر وتنمو في عقله حتى تستوي وصولًا إلى لحظة المخاض التي تشي بحتمية ولادتها وخروجها من حيزها الضيق إلى ما هو أرحب وأوسع، ولعل ذلك ما أراد أن يشير إليه عز الدين إسماعيل من "أن الشاعر - رغم عمله كذلك تتلقاه الحواس ويحدث التوتر العصبي المنشود - يتجاوز المحسوسات من حيث وجودها العياني

(١) السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي، مكتبة المتنبي - القاهرة، ص 88.

القائم إلى الرموز المجردة من كل ما للشئ المحسوس ذاته من خصائص وصفات^(١)، فالمراد من ذلك أن الرؤية الوجدانية المبثوثة في هيئة نص شعري؛ وُجدت في عقل مبدعها بباعث نفسي كون بذرتها، ونمى تفاصيلها، حتى خرجت منه تتخطى حدود المحسوسات العابرة، إلى ما هو أبعد، ذلك الذي يمكن القارئ الخبير من الوصول إلى كنهه وغايته ودلالاته المكثفة.

إن الرابط بين البعد النفسي ووجدان الشاعر يتشكل منطقيًا بصورة تراتبية، إذ يمكننا التقرير بأن البعد النفسي خاصًا والوجدان عامًا، وذلك باعتبار أن الوجدان قد يكون جمعيًا أو فرديًا، أما الفردي فقد يتكافأ مع البعد النفسي وتتداخل محدودات كل منهما بصورة كبيرة، والوجدان الجمعي هو الذي أضفى صفة العمومية على مصطلح الوجدان، ولعل دلالات ذلك تتضح من خلال تلك النصوص التي تنتج في المناسبات العامة والأعياد، فالوجدان الجمعي هو الموجه لإنتاجية تلك النصوص، ويتحكم صدق العاطفة وتوجهها في إنجاح ذلك النص دون غيره، أما البعد النفسي العاكس للتجربة الشعرية؛ يظهر صده بقوة على في النصوص التي ينفردها بها منتجها، ويبعثه على إنتاجها ذلك العامل النفسي المتسلط على قريحته وعقله حال إنتاجه النص، ومن ذلك نستنبط أن "الأدب رمز للرغبات المكبوتة في اللاشعور، ولا منطقية هذا الشعور تنشيء علاقات جديدة بين الرموز، وهذه العلاقات الجديدة يجب أن يلتفت إليها عند محاولة تفسير الأدب، فالرمز ذاته صورة مجسمة للمعنى الكامن في النفس والعلاقات الجديدة بين هذه الرموز ليست مقصودة لذاتها"^(٢)، وإنما عاكسة للبعد النفسي المتسلط على وجدان الشاعر، ونلمح أثره في الألفاظ والتراكيب والصور والأخيلة وحتى العتبات النصية فيما يخص النص الشعري الحديث.

قد يتولد الخيال من البعد النفسي الكامن في عقل الشاعر، ويصاغ ذلك الخيال وتوجهه دلالاته وفقًا للحالة النفسية التي قد تكون منبسطة أو منقبضة بسبب ذلك، فالنفس مأسورة لما يشغل العقل ويتسلط عليه، فإن "المخيل هو الكلام الذي تدعن له النفس فتنبسط لأمر، وتنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار، وبالجملة تنفعل له انفعلاً نفسياً غير فكري سواء كان المقول مصدقاً به أو غير مصدق"^(٣)، من هذا المنطلق نقرر أن التفسير النفسي للنص الشعري قد أفصح عن مكونات الشاعر ودلالاته الغائرة في ثيايا التعبير، فالمادح تسلط على عقله باعث التكسب أو الصدق الفعلي أو الحصول على الأمان إن كان الممدوح ذا سطوة وسلطة، والمتغزل أسره جمال المحبوب فهام به، "فقراءة الجوانب النفسية وتطبيقها على تلك الأعمال يمثل نافذة واضحة الرؤية للمتلقى"^(٤)، وهكذا نجد حضور الأثر النفسي في الموضوع الشعري بصورة كبيرة؛ بل لا ننجح كثيراً إن قلنا أنه الموجه والمحدد لموضوع النص وغاياته وصوره وتعبيراته.

إن الحديث عن الوجدان والبعد النفسي يستدعي بالضرورة إبراز العلاقة الوطيدة بين الأدب وعلم النفس، أو ما يعرف بالتفسير النفسي للأدب، ذلك الاتجاه الذي وجد مساحة متسعة في الأدب العربي حديثاً، وقد نتج عن رؤية فكرية تأثرية من أعلام النقد في العصر الحديث بالفكر الغربي ومناهجه، وقد أشار فرويد إلى أن التحليل النفسي للأدب يوقف المتلقي على

(١) عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة - بيروت، ص 49.

(٢) عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه: دراسة ونقد، دار الفكر العربي - القاهرة، ط 2، 1985، ص 82.

(٣) مصطفى بشير القط، البعد النفسي للصورة الشعرية، مجلة فكر وإبداع، ع 52، 2009 م، ص 296.

(٤) زياد محمود مقدادي، تلقي شعر التراث في النقد العربي الحديث، عالم الكتب الحديث - الأردن، ط 1، 2012 م، ص 90.

دلالات وأسرار قد لا تتبدى في الرؤية التفسيرية أو التحليلية أو الجمالية، فطريقة التحليل هي المنزع الموصل إلى كنه النص الإبداعي وغاياته وظروفه التي أنتج فيها، ويتحتم على الناقد التبصر والتزام الحيادية في تفسيره النفسي للنص، فلا يجوز على الطبيعة الجوهرية له، ولا يختلف تطبيق ذلك على الأدب كما يطبق على غيره من العلوم المتصلة بالدراسات التاريخية والحضارية والأساطير وغيرها^(١).

تتمثل الغاية من التحليل النفسي للأدب في فائدة مهمة لها نفعها في الدرس الأدبي والنقدي؛ وهذه الفائدة تتمثل في الوقوف الفعلي على ظروف إنتاج النص، حيث يعتمد المحلل أو المفسر -إن صح التعبير- إلى استكناه المكنون وطرق ما بعد اللفظ، والتحقق من الدلالة الغائرة التي لا تتبدى في ظاهر النص ومفرداته الفنية العابرة، وذلك المنزع قد أوقفنا في حالات متعددة على حقائق فعلية لشعراء قدامى، كتلك الدراسة التي قدمها العقاد عن ابن الرومي، إذ لم ينجح العقاد بعيداً حين قرر بأن "الطبيعة الفنية هي تلك الطبيعة التي تجعل فن الشاعر جزءاً من حياته أياً كانت هذه الحياة من الكبر والصغر، ومن الثوة أو الفاقة، ومن الألفة أو الشذوذ، وتما هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئاً واحداً، لا ينفصل فيه الإنسان الحي من الإنسان الناظم، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره، وموضوع شعره هو موضوع حياته، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه، يخفي فيها ذكر الأماكن والأزمان، ولا يخفي فيها ذكر خالصة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان"^(٢).

المح العقاد في هذه الفقرة إلى رؤية فلسفية نفسية أدبية معمقة، إذ قرر ابتداءً أن نتاج الشاعر هو صورة من حياته، وفي ذلك إشارة إلى تسلط النزعة النفسية المشكلة لوجان الشاعر على شعره ونتاجه، فكما قيل أن الشاعر ابن لبيته، فيمكننا التقرير بأنه أسير لوجدانه وإحساسه، إذ لا يمكنه الانفكاك عن ذلك الهم المتحكم والمتسلط على عقله، والموجه له فيما يصدر عنه، فالبعد النفسي له السلطة الكبرى على تشكيل الوجدان.

وانتبه العقاد مبكراً إلى تشكيل النص الكلي لدى الشاعر، وهو ما يمكن أن نشير إليه بديوان الشاعر الذي يجمع نتاجه الشعري كما هو الحال عند الشعراء القدامى، وفي العصر الحديث قد نكون أمام نمطين؛ النمط الأول يتمثل في النص الكلي على مستوى الديوان الفردي للشاعر والذي يحمل تجربة شعرية وبعداً نفسياً قد يختلف عن ديوانه التالي أو السابق عليه، وهذا يختلف عن التجربة الشعرية الكلية التي لا تكتمل -في الغالب- إلا بموت الشاعر، فتجتمع دواوينه، ويمكننا التعارف على هذا بالنص الكلي الجامع، ولا نعدم رابطاً نفسياً في نتاج الشاعر بأسره، إذا أيقنا أن البعد النفسي والوجدان يتسلط على الشاعر في نتاجه الأدبي في كل أحواله، فهو المتسلط عليه حال فرحه وحزنه، أو حال رضاه وسخطه، أو حال تأمله وتفكره في الكون والحياة، أو حال مدحه وهجائه أو غير ذلك.

وبهذا نقرر أن البعد النفسي يتعالق مع الوجدان الذي يكون فردياً في أحيان، ويكون جماعياً في أوقات أخرى، وكلاهما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنفسية الشاعر، فينتج النص مقروناً برؤية المبدع ومزاجيته المتسلطة عليه، لذلك سنهدف إلى استجلاء معالم

(١) ينظر: فرويد، محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، ت: أحمد عزت، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 1987 م، ص 430.

(٢) عباس العقاد، ابن الرومي، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ص 8.

البعد النفسي لدى الشاعر حسين أحمد الزيداني من خلال ديوانه "ليس إلا.. شعر"، على أن نجمع في دراستنا بين النص الشعري والعتبات النصية.

المبحث الأول: دلالات البعد النفسي في عتبة العناوين الداخلية.

انطلق الزيداني بديوانه معتمداً على مفارقة سياقية في عنوان الديوان (ليس إلا.. شعر)^(١)، وكأنه يجيب على تساؤل محذوف يمكننا صوغه في: ماذا حوى هذا الديوان/ الكتاب؟ فتمثل جوابه بهذه العبارة التي اختارها عنواناً لديوانه: (ليس إلا.. شعر)، فإن عتبة العنوان الكلي للديوان تشي بمعالم الحالة المزاجية والنفسية للشاعر؛ تلك التي توحى بعدم رغبته في الاسترسال أو الشرح والتوضيح لمكنون ديوانه، ومن جهة أخرى يظهر لنا العنوان تلك الروح المتسلطة على وجدان الشاعر، وهي روح يغمرها الأسى ويعتريها الهم الذي قد يكون همّاً فردياً خاصاً وله نماذجه ونصوصه المعبرة عنه في الديوان، وقد يكون همّاً اجتماعياً ساق له بعض النصوص المفصحة عنه، فقبل الشروح في استكناه مدلولات النصوص وعناوينها؛ يمكننا استلاء ملامحها من خلال العنوان العام للديوان، لأنه يمثل العلامة الدالة على الشيء الذي تحتويه، وهذا ما ألمح إليه الصولي قديماً حين قرر أن العنوان هو "العلامة كأنك علمته حتى عرف بذكر من كتبه ومن كُتب إليه"^(٢)، فدلالة العنوان لها مكانتها اللغوية والتركييبية والنفسية والأدبية والدلالية المركزة، والتي تتعالق مع كل النصوص داخلها.

إن عنوان هذا الديوان تنبعث منه رائحة الأسى الممزوج بالحنين، وهذا الإحساس يتسلط على ذهن الشاعر في حالات متعددة ومتباينة في آن، فقد يتعلق بالحنين إلى شخص أو مكان أو عهد أو غير ذلك، فدلالته ليست مقصورة على التأسي بفراق حبيب فحسب؛ وإنما يكمن الرابط النفسي المفصح عن الدلالة الفعلية لكل نص على حدة، وهذا ما سنقف على معالنه في عناصر دراسة البعد النفسي لعتبة العناوين في هذا الديوان، إذ "يمثل العنوان أخطر البؤر النصية التي تحيط بالنص، لأنه يمثل في الحقيقة العتبة التي تشهد عادة مفاوضات القبول والرفض بين القارئ والنص فيما عشق ينبجس وتقع لذة القراءة وإما نكوص، ليتسبد الجفاء مشهدية العلاقة، فالعنوان هو الذي يتيح أولاً اللولج إلى عالم النص والتموقع في ردهاته ودهاليزه، لاستكناه أسرار العملية الإبداعية وألغازها"^(٣)، لذلك يجب على الشاعر "أن يمنحه وقتاً واسعاً من التأمل والتدبر؛ أي يصبح جزءاً من الكتابة الفنية، أنه جماع الملخص وملخصه"^(٤)، مختزلاً في عتبته الأولى والأصلية، عتبة العنوان.

قبيل الشروع في تناول عتبات النصوص وجب علينا الوقوف على أنماطها ابتداءً ورصد أطر المشاهدة والمقاربة بينها وبين العنوان العام للديوان، وبعد الاطلاع على ديوان (ليس إلا.. شعر) تبين لنا أنه يمكن تقسيمها إلى أنماط ثلاثة، أما النمط الأول

(١) حسين أحمد الزيداني ، ليس إلا .. شعر، مؤسسة الانتشار العربي - بيروت ، ط1، 2020 م.

(٢) أبو بكر الصولي ، أدب الكتاب، تح : محمد بمجة الأثري ، المطبعة السلفية - مصر، 1341 هـ ، ص143.

(٣) خالد حسين حسين ، في نظرية العنوان : مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية ، دار التكوين ، ص6.

(٤) محمد إسماعيل حسونة ، النص الموازي وعالم النص : دراسة سيميائية ، مجلة جامعة الأقصى ، ع2 ، مج19، 2015م ، ص9.

فهو الذي يتخلله الهم والأسى الممزوج بروح الأمل والقرب، وهي تتمثل في عناوين (علو- قلبي وطيفك- تعالي- منة- وتنطفئ الحرائق- يقين- ترانيم البياض- زف البشائر- فجر جديد- يا به- ما بال عينيك- عناق).

والنمط الثاني يتخلله الهم والأسى الممزوج بروح اليأس والقنوط، نجد معالم ذلك المعنى متحققة في عناوين (خيبة- وداع- على حافة الليل- سراب- ليت- اغتراب- دام- قلق المواسم- أسى- سفر- فاجعة- طلال- فقد- إليها- فاطمة).

والثالث حاول الشاعر فيه أن يخرج به من ثوب الأسى والحزن، لذلك وضع له عنواناً فرعياً "تضاريس تقرأ مرتين" وضم إليه هذه العناوين الفرعية: (خلود- عالميون- صنعاء- الأحساء- عناق- رمضان- معايدة)، وكأنه يومئ إلى أن هذه النصوص خارجة أو منعزلة عن ذلك الخيط الرابط بين النصوص الشعرية للديوان، ويمكن أن نستنبط أنه أراد الترويح عنه نفسه وعن قرائه بذلك الخروج عن دلالة الديوان ونصوصه المضمنة بداخله، حيث "إن العقل الباطن هو مهبط الوحي والكشف والإلهام في الإنسان، وهو منبع العبقورية والنبوة والإختراع وما أشبه، وقد تطرف بعضهم فذهب إلى أن العقل الباطن هو الروح أو هو، في رأي آخرين منهم جزاء الله الذي حل في الإنسان"^(١)، والعقل الباطن في حالة الشاعر هو الذي نقصد به وجدان الشاعر، وهو العاكس الفعلي للبعد النفسي المتحكم فيه والمتسلط عليه حال إنتاجه نصه، وحال إنتاجه العناوين النصية، التي هي بمثابة مفاتيح النصوص وأبوابها.

ويمكننا الوقوف على تقسيم آخر أقره الشاعر في ديوانه، ذلك التقسيم نستوضحه من العناوين الفرعية لكل قسم أو مجموعة من القصائد، إذ أورد مجموعة من القصائد تالية لعنوان الديوان (ليس إلا.. شعر)، وتعالقها معه تعالقاً مباشراً، وأورد عناوين فرعية داخل الديوان كل عنوان خصص له مجموعة من القصائد، وهي (مدارات عشق) و(مروا على مرآة الروح) و(تضاريس تقرأ مرتين)، كل عنوان يمثل عنواناً رئيساً لديوان متكامل بقصائده ودلالاته، فالعنوان الأول (مدارات عشق) جمع فيه الشاعر ست عشرة قصيدة هي (علو- قلبي وطيفك- خيبة- وداع- على حافة الليل- سراب- ليت- اغتراب- دام- تعالي- منة- وتنطفئ الحرائق- قلق المواسم- يقين- ترانيم البياض- أسى)، والعنوان الثاني (مروا على مرآة الروح) أورد في طياته عشر قصائد (زف البشائر- فجر جديد- يا به- ما بال عينيك- سفر- فاجعة- طلال- فقد- إليها- فاطمة)، مجمل هذه العناوين تفصح عن دلالات العشق والفرح والألم والحزن المتسلط على وجدان الشاعر والعاكس لحالته النفسية، إذ هدف إلى جمع القصائد التي حملت دلالات الحب والعشق والهجر والبعد والفقد والتأسي والسرور وغيرها تحت عنوان (مدارات عشق)، وجمع دلالات الندب والهجر والتأسي والفقد، وعبر عنها بعنوان الفرعي العام (مروا على مرآة الروح)، ذلك العنوان الذي تتشاكل على هيئته النصوص والعناوين التابعة له، والتعبير بالفعل الماضي (مروا) يشير -غالباً- إلى موت المقصودين وانقضاء أعمارهم، و(مرآة الروح) تعبير يشير إلى تعلق الشاعر بالمعنيين وصفاء سيرتهم وانعكاس حبه وتعلقه بهم أو تفجعه عليهم.

العنوان الثالث في الديوان هو (تضاريس تقرأ مرتين)، أورد الشاعر فيه سبع قصائد، أغلبها تعبر عن مناسبات عامة أو في إظهار التشوق والحب لمكان بعينه، ونستوضح ذلك من عناوينها (خلود- عالميون- صنعاء- الأحساء- عنقاء- رمضان- معايدة)، فلا شك أن المناسبة لها باعثها النفسي الذي يجيش بخلد الشاعر ويترجم في نصوص شعرية تزيد حرارتها أو تخفت على

(١) علي الوردي، خوارق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة، مكتبة دجلة والفرات - بيروت، ط1، 2009 م، ص142.

حسب البعد النفسي للشاعر، ويظهر من عناوين النصوص اقتراحتها بالمكان أو الزمان بصورة مباشرة، حتى العناوين التي تشي بالعمومية لا تخرج عن تلك الدلالة، والغاية أن نبرز رؤية الشاعر في إيراد عناوين فرعية داخل ديوانه، كل عنوان يجمع مجموعة من القصائد، وكل هذه العناوين الفرعية باختلاف أنماطها وتقسيماتها ليست إلا.. شعر.

إن الغاية من ذلك التقسيم تتمثل في إيقاف القارئ على الرابط بين عنوان الديوان والعناوين الداخلية للنصوص، وهذه الرؤية هي التي سننطلق وفق محدداتها للوقوف على البعد النفسي للشاعر من خلال ديوانه، إيماناً منا بأن العنوان هو "سمة العمل الأدبي، وأداة إبراز قوية له؛ نظراً لأنه يضم النص الواسع مختزلاً كامناً مكتفياً، يختزن فيه بنيته أو دلالاته أو هما معاً، لهذا عدّوه نصّاً موازياً، وبهؤا، وعتبات تسبق النص وتكمل دلالاته"^(١)، إذ العنوان علماً على ما يأتي بعده من نص أو نصوص، وفي ذلك يتبين المقصد من العنوان الكلي العام الذي يفصح عن البعد النفسي للشاعر، ويفصح كذلك عن أسرار النص أو النصوص إن كان جزئياً أو كلياً.

المطلب الأول: البعد النفسي في العناوين الدالة على التفاؤل والأمل.

قررنا آنفاً أن الرؤية العامة للديوان تبعث على بث الأمل والحزن، وذلك الأمر قد نقف على معالنه في معالم اليأس ومعالم الأمل، لأن الإنسان تتراوح مزاجيته بين التأسي المباشر على فائت، أو التأسي غير المباشر على ماضٍ يأمل في تغيير معالنه، لذلك يتبين المعجم الشعري على مستوى العتبات والنصوص بين هذا وذاك، والنصوص الشعرية وعتباتها عاكس قوي للبعد النفسي المتسلط على ذهن الشاعر، وترجمة ذلك تظهر بقوة على مستويات متعددة، منها الموضوع والصورة والمعجم والأسلوب والموسيقى، نجمل ذلك بقولنا أن الحالة النفسية تتسلط على مفردات النص الشعري بأسره وبكل مشتملاته، وبذلك أشار العقاد في تحليله النفسي لابن الرومي أننا قد نجد "بعض العوض عن ذلك النقص الكبير بخاصة فريدة فيه ليست في غيره من الشعراء هي: مراقبته الشديدة لنفسه، وتسجيله وقائع حياته في شعره. فما من أحد كان له شأن في حياته إلا وجدت اسمه في ديوانه ممدوحاً أو مهجوّاً أو موصوفاً أو مردوداً عليه، وما عاب أحدٌ مشيته أو لبسه العمامة أو طريقته في النظم إلا كان لذلك خبر مفيد في ديوانه"^(٢)، مع أن كلام العقاد هذا مقصور على ابن الرومي؛ نقف على إلماحته العامة التي تظهر التأثير النفسي للشاعر في قصائده، وفي العصر الحديث نجد معالم ذلك في النصوص والنصوص المصاحبة (العتبات) مفصحة عن البعد النفسي للشاعر.

باستقراء عناوين النصوص الواردة داخل ديوان (ليس إلا.. شعر) للشاعر حسن أحمد الزيداني وقفت على بعض العناوين التي تشير إلى التفاؤل والأمل، ولكن هذا الأمل يعد كسراب غير متدارك بالنسبة للشاعر، فهو ليس رؤية مستقبلية قابلة للتحقيق، ولكن أغلبها مهون بماضي كان يأمل أن يتغير ويتبدل إلى ما يأمله ويرجوه، وقد نقف على دلالات هذا المعنى في القصائد المعنونة بـ(علو - قلبي وطيفك - تعالي - منة - وتنطفئ الحرائق - يقين - ترانيم البياض - زف البشائر - فجر جديد - يا به - ما بال عينيك - عناق).

(١) يوسف نوفل، طائر الشعر، الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة، ط ١، 2010 م، ص 79.

(٢) العقاد، ابن الرومي، ص 63-64.

في قصيدة (علو)^(١) يشير الشاعر إلى معاني الارتقاء التي لو تحققت لجنحت روحه إلى قمة السعادة والهناء، ومن ناحية أخرى نجد إشارات علو المحبوبة كامن في نفس الشاعر الذي يتحدث إليها وهي في علوها:

لأنك في علوك ما التفتنا

وفي محرابك

الأنقى قنتنا

يعانقك الضياء وقد تنادوا

بليل يقتفيك،

به بختنا

فدلالات النص متوائمة مع العنوان ومرتبطة به ارتباطاً وثيقاً، وكذلك نجد لغة النص جامعة بين المتضادات من الألفاظ المعبرة عن الأمل والتفاؤل من جهة، والأسى والحزن من جهة أخرى، في حين تغطي نبرة الأمل غير القابل للتحقيق على المعنى العام للنص، فندرك بهذا أن عنوان النص جامع لفكرته ودلالاته، فإن "رسالة النص ليست في متنه وحده، بل بالإضافة إلى العنوان، الذي لا ينبغي أن ننظر إليه في ذاته ولذاته، وباعتبار استقلالته الصوتية فحسب. بل إلى كيميائية التفاعل بينه وبين النص الكلي، وبذلك يكون العنوان وسيلة اتصال وتقي بين المرسل، الشاعر، والمتلقي، ويكون لذلك، سياقاً مهيئاً لسياق النص"^(٢)، على مستوى العناصر المكونة للنص الشعري بأسره.

وقد ندهش حين نقف على معالم العنوان الذي يحتمل معناه الضدين، أو ربما يجمع بينهما إن لم ينجح لأحدهما، قد نستظهر ذلك من قصيدته (قلبي وطيفك)^(٣)، فدلالة العنوان تحمل المتلقي على استشعار الفرح والبهجة والأمل والحب، فطيف المحبوب إذا هبَّ على القلب يطرب له، وينتشي العقل، ويتحول الوجدان من حالة مستقرة أو مكتئبة إلى حالة انتشاء وتفاؤل وأمل، غير أن الشاعر في هذا النص أوقفنا على مفارقة سياقية، إذ يقول في قصيدته:

كقلبي وهي تنكسر

البخوت

على موال طيفك

إذ يفوت

تسامري رباح الشوق

(١) حسين أحمد الزيداني ، ليس إلا .. شعر، ص13.

(٢) يوسف نوفل ، طائر الشعر، ص80.

(٣) حسين أحمد الزيداني ، ليس إلا .. شعر ، ص15.

غبنًا

وطعم السهد متكأ

وقوت

لغة النص كلها محملة بالألم النفسي والحزن، في حين نجد العنوان محتمل لدلالات أخرى تبعث على الفرح والأمل، وهذا ما نعني به المفارقة السياقية بين العنوان والنص، إذ يجنح الخطاب الشعري للنص على مستوى اللغة والأسلوب إلى بث الأثر النفسي العالق بوجدان الشاعر وعقله، وهو لأمر الذي عبرنا عنه بأنه أمل غير قابل للتحقيق، وغاية الأمر أن مقصدية الشاعر من إضفاء الإيهام على العنوان هي ذاتها المفصحة -لدى المتلقي الخبير- عن جوهر المفارقة التي يمكن أن يفاجأ بها المتلقي، إذ يتعنى الشاعر في اختيار عتبة النص الأولى/ العنوان أيما معاناة قد لا تقل عن معاناة إنتاج النص نفسه، لذلك قرر بعض النقاد أن عنوان النص "يجب أن يمنحه المؤلف وقتًا واسعًا من التأمل والتدبر؛ أي يصبح جزءًا من الكتابة الفنية، أنه جماع الملخص وملخصه"^(١)، بمعنى أن النص كامن فيه، وهو ماثوث في خلال النص وثناياه، فكلاهما نتج عن معاناة واحدة وتسلب عليهما بعدًا نفسيًا واحدًا.

تدل عناوين هذا الديوان على مرحلة واحدة من حياة الشاعر، تلك المرحلة التي تمتاز برؤية واحدة تجاه الحياة والأشياء، يتسلط عليها بعدًا نفسيًا واحدًا، تشكل وفقه الوجدان الشعري، فبث مكنوناته الشعرية بلغة متكافئة تجمع بين المتناقضات والمتضادات لإظهار الحالة النفسية للشاعر، ولا أدل على ذلك من تلك العناوين التي أوردناها في هذا العنصر، وهي تبعث على الأمل والتفاؤل، ولكن أغلبها تشير إلى نمط الأمل غير الممكن أو تشير إلى الصورة التي يتمناها الشاعر للخلاص من عذابات، وبذلك نخلص إلى أن النص غامض إذا لم نفطن إلى دلالات عنوانه، إذ يمثل الركيزة التي "لا يمكن أن نلج إليه إلا عبرها، وهو الجسر الممتد بين الصمت والكلام، المؤسس لنقطة الانطلاق فيه"^(٢)، إذ هو مرحلة فنية لها أهميتها وفعاليتها في بث الرؤية الفنية للنص وربطها بالبعد النفسي المعبر عن مضمونه.

المطلب الثاني: البعد النفسي في العناوين الدالة على الحزن والألم.

إن السمة الأبرز في هذا الديوان هي التألم وإظهار اللوعة والإحباء بالبعد والاعتراب، فالشاعر مغترب عن ذاته بسبب غربة قلبه وحنينه الدائم إلى ذلك المنشود البعيد، وبالرجوع إلى الحصر السابق لعناوين الديوان الدالة على الحزن والألم نجد لغته التعبيرية تعالقت بصورة مباشرة مع وجدانه وحالته النفسية، فرمى بث في العناوين الدالة على الأمل والفرح شيئًا من المضادة، ولكنه هنا هرع إلى المباشرة، فلننظر إلى قصائده المعنونة بـ(خيبة- وداع- على حافة الليل- سراب- ليت- اغتراب- دام- قلق المواسم- أسى- سفر- فاجعة- طلال- فقد- إليها)، فهذه العناوين نابعة من أوجاع تبعث على القلق النفسي والوجداني بصورة كبيرة، وكأنه نحى المتلقي بصورته الكبرى وأضفى خصيصة محددة على قصائده توضح المقصود وتحلي المعنى المراد من النص كله، حيث

(١) محمد إسماعيل حسونة، النص الموازي وعالم النص: دراسة سيميائية، ص 9.

(٢) يوسف الإدريسي، عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، الدار العربية للعلوم، ط 1، 2015 م، ص 61.

يمثل العنوان في النصوص "الإبداعية نصًا مصاحبًا له إسهاماته التي لا تغفل للولوج إلى عالم النص، وكذلك له دلالاته التي لا تنفك عن مراد المبدع"^(١)

ففي مجمل العناوين المذكورة ندرك دلالات الاغتراب عن الذات، والسهد ومعاناته، والانفصال الأبدي، وآلام الذكرى، والحنين القاتل، والفقد، والتفجع، واحمرار المشاهدات ودمويتها، وتمني تبدل الحال، كل هذه المعاني نجدها حاضرة في عناوين النصوص بصورة مباشرة، ومن ذلك ندرك أن "العنوان من جهة المرسل؛ هو ناتج تفاعل علاماتي بين المرسل والعمل، أما المستقبل فإنه يدخل إلى العمل من بوابة العنوان متأولاً له، وموظفًا خلفيته المعرفية في استنطاق دوله الفقيرة عددًا وقواعد تركيب وسياقًا، وكثيرًا ما كانت دلالية العمل هي ناتج تأويل عنوانه"^(٢)، باعتباره علامة بارزة ودالًا مفصّلًا عن النص إجمالًا، ولكن برؤية مختزلة ومركزة.

لا تغفل تعالق الموضوع الشعري مع البعد النفسي للشاعر، إذ يتولد الموضوع عن وجدانه، وفقًا للحالة وللبعد النفسي الموجه والمحدد للموضوع، ففي قصيدة (سفر)^(٣)، نستشعر من العنوان أن الشاعر يندب غربته، أو اغتراب عزيز عليه من محيطه إلى مكان بعيد، وهذا مدلول العنوان المنفرد بكلمة واحدة (سفر)، والسفر رحلة واغتراب، ويُأمل منه العودة والرجوع، ولكنه يصدمننا في هذا النص بأنه يتكلم عن سفر بلا عودة، ورحلة بلا إياب، إذ يقول:

حزمت إلى دار الخلود

حقائبك

وودعتنا والعيد يتلو

مناقبك

يرتل آي الحب

فيك سجية

ويسرج نحو المكرمات

نجايبك

حيث قالها الشاعر في رثاء ابن خاله الذي مات صبيحة يوم العيد، وغادر الدنيا الفانية إلى دار البقاء والخلود، وندرك أن الشاعر قد اختار كلمة (سفر) عنوانًا لمرثيته إيذانًا منه لنفسه المعذبة أن مكرمات فقیده ستعود، وآثار أخلاقه ستؤوب حتمًا، ولم يرحل عنهم إلا الجسد، خاصة وأن الفقيد كان من أصحاب الأخلاق المحمودة التي تتجلى آثارها على الكثير من أهله

(١) محمود عبد الحليم، عتبات النص الشعري الحديث في رؤية يوسف نوفل، المجلة العلمية بكلية الآداب - جامعة طنطا، ع43، ص5.

(٢) محمد فكري الجزار، العنوان و سيميوطيقا لاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م، ص19.

(٣) حسين أحمد الزيداني، ليس إلا .. شعر، ص78.

وخاصته، ومن ناحية أخرى قد تعكس كلمة (سفر) تلك الرغبة الملحة في نفس الشاعر في رجاء عودة فقيده، أو تمني عودته لمكانته، لذلك نجد أن الشاعر حمل عنوان قصيدته دلالة الفجيرة المجهدة للنفس التي تعكس الحالة النفسية التي هو عليها حال كتابة النص.

يختص ديوان الشعر الحديث بالعلاماتية الرامزة إلى تقارب المدلولات وارتباطها، تلك التي تجعل لعنوان الديوان مكانة لها أهميتها البالغة، وهي ذاتها التي تعمل -دلالياً- على إيجاد الرابط الجوهرى بين عنوان الديوان وعناوين النصوص الداخلية من جهة، وبين النصوص وعناوينها من جهة أخرى، فيشعر المتلقي بالتلاحم القوي بين النصوص المختارة من قبل منتجها لتوضع في بوتقة واحدة يجمعها رابط قوي يتمثل في الهم المنبعث من الشاعر والساري في ثنايا النصوص، والمقاربة المراجعية الرابطة بينها والعاكسة بقوة للبعد النفسي للشاعر، ف"إذا كانت اللغة هي البوابة التي يدلف منها النص إلى عالمه الرحب، فإن الدخول إلى عالم النص ذاته -خاصة في القصيدة الحديثة- يبدأ من (العنوان) فهو المفتاح الذهبي إلى شفرة التشكيل، أو هو الإشارة الأولى التي يرسلها الأديب إلى المتلقي"^(١)، وإن مناط التواصل الأول بين المستقبل أو المتلقي هو الباعث النفسي الكامن في ثنايا العنوان، ومنه يدلف إلى فك شفرات النص ومدلولاته.

المطلب الثالث: البعد النفسي في العناوين الدالة على الوجدان الجماعي.

لا ينزع الشاعر عن حيظه الاجتماعي وبيئته وقوميته، لذلك نجد الشعراء -في الغالب- خير مترجم للوقائع والأحداث العامة والجزئية، باعتبارهم الجزء المرهف من هذه البيئة أو هذا الوطن أو تلك الأمة، يتأثرون وجدائياً بما يجري حولهم من أحداث، ولا يستطيعون الابتعاد عن الكتابة وبث الرؤى النفسية الواقعة تحت تأثير الوجدان الاجتماعي، فهم بذلك المترجمون للهم العام، ولا يخفى علينا العديد من النماذج الوطنية والعربية التي نجد صداها لدى الشعراء العرب في كل مكان، ولم يخرج شاعرنا حسين أحمد الزيداني عن تلك القاعدة العامة، إذ نلمح تأثره ببعض الأحداث في ديوانه، ومن ذلك قصيدته المعنونة بـ(فاجعة)^(٢)، تلك التي نظمها في رثاء الأمير منصور بن مقرن ورفاقه إثر حادث تحطم طائرهم في أحد جبال عسير، وقد بدأها متأثراً بهول الفاجعة، وقد أطل النفس فيها مما يدل على مناشدته للوجدان الجمعي ومشاركتهم فجيعتهم، إذ يقول في مطلعها:

عسير والفجيرة في نزال

وطعم الموت يهزأ

بالسؤال

أحقاً يا عسير رماك فقد؟

وبدر سماك آل

إلى الزوال؟!!

(١) فوزي عيسى، النص الشعري وآليات القراءة، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية، 2006 م، ص 11.

(٢) حسين أحمد الزيداني، ليس إلا .. شعر، ص 80.

إن مضمون العنوان يدل مباشرة على النص، واعتماد الشاعر على المباشرة يتكافأ مع الرؤية الجماعية للحادثة، فهي محل اتفاق وإجماع على أنها فاجعة تتحد صورتها لدى الشاعر وغيره من أهل عسير ومن أهل المملكة، ويدل على ذلك ويؤيده دخول الشاعر مباشرة في توجيه خطابه لعسير موطن الحادث الأليم، والكلام المباشر عن الموت والفجعة والألم الجماعي الذي تسلط على المنطقة لوقوع هذا الحادث فيها.

إن معاناة الشاعر في تخير العنوان لها أهميتها القصوى، إذ تتغير المعايير الفنية والدلالية التي يتكئ عليها لاختيار العنوان، ففي اعتماده على وجدانه دون تأثير يلزم بمعايير وقواعد قد يتخلى عنها حين يكون واقعاً تحت تأثير الجماعة، أو مأسور للهم العام، وهدفنا من ذلك الإيضاح أن نشير إلى أهمية العنوان الذي يمثل تعاقداً بينه وبين ما يكتب، وبينه وبين من يقرأ، كي تكون الحقوق متكافئة ومتوازنة^(١).

ومن النصوص الدالة على التأثير النفسي بالوجدان الجماعي تلك القصائد التي تقال في التغني بالأوطان، حيث نجد الشاعر يعنون أحد نصوصه بـ(خلود)^(٢)، ولعلنا نستشعر المباشرة - كذلك - في العنوان، ويفصح العنوان عن معاني الشموخ والبقاء والخلود والرفعة والاعتزاز وصور النضال والتعابير الدالة على هذه المعاني ومثيلاً، فقد صدر قصيدته بقوله:

وبأي معنى للخلود

أزفه

ومدى الخلود مطرز

ببهائه

وطن، وأحلام البياض

ترومه

كي تستريح على

بياض نقائه

وردت لفظة الخلود في طليعة النص وصدارته، وهي اللفظة الأنسب لاختزال النص كله فيها لتعبر عن وجدانه الخاص المتعلق مع الوجدان الجماعي المحب لوطنه، لذلك يختلف التعبير بتأثير الوجدان الفردي عن التعبير الواقع تحت تأثير الوجدان الجماعي، ولعل الفارق بينهما واضح فيما سقناه من نماذج في المطالبين السابقين والنماذج الدالة على هذا العنصر، ويبقى أن نشير كذلك إلى أن البعد النفسي يكون أكثر طغياناً على الشاعر في التعبير عن وجدانه الفردي، ويخفت قليلاً في تأثيره عليه حال

(١) ينظر : عبد الحق بلعابد ، عتبات جزار جينيت من النص إلى المناص ، ت ، سعيد يقطين ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، ط 1 2008 م ، ص 71.

(٢) حسين أحمد الزيداني ، ليس إلا .. شعر، ص 99.

تأثره بالوجدان الجمعي، وفي كل الأحوال نقف على معالم وأحوال توصلنا إلى حقيقة تأثير البعد النفسي والحالة المزاجية على الشاعر، وانعكاسها على النصوص وعتباتها، وانعكاسها على عناصر النص الشعري بصفة عامة.

نخلص مما سبق عرضه إلى أن النص الشعري الحديث مرهون - بصورة كبيرة - بالبعد النفسي، وكذلك عناوين النصوص لا تخرج عن ذلك التقرير باعتبارها جزء مهم من متممات النص الشعري؛ بل باعتباره "سلطة النص وواجهته الإعلامية، كما أنه يمثل جزءاً دالاً من النص يُوْشِر على معنى ما، ووسيلة للكشف عن طبيعة النص وللإسهام في فك غموضه"^(١)، وهو المترجم الأول للبعد النفسي والوجداني للشاعر حال كتابته هذا النص، وأول كاشف للرمزية الناتجة عن البعد النفسي في النص، لذلك تبرز أهمية عتبة العناوين في كونها "أكثر من مجرد مدخل، أو مخرج، أو إشارة مرور، أو وسيلة مواصلات نصية .. إنها - فضلاً عن هذه الأوصاف الإنشائية لتجلياتها الوظيفية - عنصر شرطي لبناء النص، وعنصر ضروري لتلقيه، وعتبة الدار لا يمكن تجاهلها، أو النفاذ من دونها، كما لا يمكن حذفها من مخططات البناء، وفصلها عن الخصائص البرجماتية والجمالية المعمارية، فهي جزء لا يتجزأ من النص"^(٢)، وهذا ما وقفنا على دلالاته الفعلية فيما عرضناه من عناوين في هذا العنصر.

تقارب الشاعر في عنونة قصائده بصورة كبيرة، حيث جاءت أغلب العناوين متعلقة مع دلالة العنوان الكلي للديوان (ليس إلّا.. شعر)، والذي جمع في طياته ثلاثة عناوين فرعية صنف النصوص الشعرية وفق الحالة الشعورية والبعد النفسي والاتجاه الموضوعي للقصائد، وبهذا نستشعر أن العنوان يعني مباركة الديوان، كما تشير تسمية الطفل إلى مباركته، فمتى أعلن عن اسمه سيتم تسجيله به، دون النظر إلى العلاقة الاعتبارية الموجودة بينه وبين اسمه، كذلك فإن العنوان يعني تعيين النص^(٣)، وفي هذا المقام فإن عنوان الديوان يشير إلى عناية فائقة في الاختيار والانتقاء.

المبحث الثاني: جماليات البعد النفسي في النصوص الشعرية.

تطراً عوامل عدة على الشاعر تحمله على توشية نصه وتحميله بما تحمله عليه نفسه، وتتحدد جماليات النص بالبعد النفسي المتسلط على قريحة الشاعر وأثارت بداخله ذلك الوهج الشعري، ويفسح له المجال متسعاً ليختار من بين الألفاظ أنسبها ومن بين الصور أوفقها ومن بين الأساليب ما يتواءم مع باعته النفسي وموضوعه الذي هو آخذ فيه، فبالغة النص وآليات بيانه وجمالياته متعددة الأنماط، وهي "ليست مقصورة على ضرب معين من ضروب الشعر، وهي بالتالي ليست سوى التناسق أو التناغم الذي يوجده الشاعر بين الصور التي تتألف منها القصيدة"^(٤)، وما نقصده بجماليات البعد النفسي الكامن في النصوص الشعرية؛ أي ذلك الأثر الجمالي البارز في النص الشعري الذي يقف على معالمة المتلقي منذ القراءة الأولى للنص، مستشعراً وجدان الشاعر المبثوث في ثناياه.

(١) يوسف الإدريسي، عتبات النص في التراث العربي، ص 61..

(٢) صادق القاضي، عتبات النص الشعري في المعاصرة الشعرية، وشعرية المعاصرة، أروقة للدراسات - القاهرة، ط 1، ص 5.

(٣) ينظر: عبد الحق بلعابد، عتبات جيران جينيت، ص 78.

(٤) أحمد مطلوب، دراسات بلاغية ونقدية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام - العراق، ص 553.

كما أن البعد النفسي في النص يضيف وحدته عليه، وللمتلقي أن يقيس ذلك من خلال قياس درجة الوهج الشعري المتدفق في النص بجملته، منذ بدايته حتى نهايته، وهذا ما نستخدمه بالوحدة العضوية قديماً، وقد نتعارف عليه حديثاً بالنص الكلي الجزئي المتكون من النص وعنوانه/ القصيدة وما يعلق به من عتبات أخرى، ف"الوحدة تعريف للقصيدة (النص) كشيء كلي، سماته الجوهرية تكمن في الوحدة، وفي التكتيف، وأن كل (عمل) جمال، وكل استعانة بالانطباع الكلي، يقومان لزماً في هذا الكون الشعري"^(١)، حيث يتشكل الانطباع من الوجدان العاكس للبعد النفسي، وهذا ما يلبس النص رداءً متناسقاً يستشعر جمالياته المتلقي، فقد نتجت من وهج نفسي وعاطفي لا يخفت.

المطلب الأول: الأثر النفسي للخطاب الشعري الباعث على التفاؤل.

تميز الخطاب الشعري في ديوان (ليس إلا.. شعر) للشاعر حسين أحمد الزيداني بالكلية المتناسقة في أبعادها المختلفة، ونجد أن الأثر النفسي حاضر وطاق على الموضوعات الشعرية التي تطرق إليها، ونلمح معالم التكامل النصي في عناصر النص الشعري تبعاً لذلك الأثر النفسي، وهذا التناغم حاضر على "المستويات الإيقاعية والتنغيمية والتركيبية والدلالية، ويمكن أن يضاف إلى كل ذلك وحدة النسق اللفظي"^(٢)، ولنا أن نستجلي ذلك من قصيدة (إليها)^(٣) التي نظمها في بث الشوق وإظهار الحب والتغزل العفيف بزوجته:

لا العمر يكفي بما يمليه وجداني

وما ييوح به، يا عمري

الثاني

من ابتهالات عشق أنت،

قبلته

منذ استفاق بفجر منك

مزدان

ومذ وثبنا بأحلام يرتلها

لحن الحياة، على إيقاعها

الحاني

(١) يوسف نوفل، مدارات النص الكلي، دار العالم العربي - القاهرة، 2011 م، ص12.

(٢) يوري لوتمان، تحليل النص الشعري، تر: محمد فتوح، النادي الأدبي الثقافي - جدة، ط1، 1999 م، ص181.

(٣) حسين أحمد الزيداني، ليس إلا.. شعر، ص95.

هذا النص تتجلى فيه معالم الأثر النفسي للشاعر الذي بلغ حدًا من السعادة جعله منتشيًا فرحًا، فقد اكتفى في عنوانه النص بعبارة (إليها)، التي توقف المتلقي على تخصيص تلك المشاعر لها دون غيرها، وتواؤم العنوان مع النص نتج عن الأثر النفسي المتحقق في وجدان الشاعر على إنتاج هذا النص حبًا وعرفانًا بشريكة حياته وزوجته.

وعلى المستوى المعجمي واللفظي نستشعر سهولة الألفاظ وعذوبتها وقربها من المتلقي عاكسة معاني السعادة والبهجة، ونجد تناسقًا بين الألفاظ والبعد النفسي والوجداني في الكثير من الألفاظ الحاضرة في هذا النص، من ذلك (ابتهالات- لحن الحياة- إيقاع- يرتلها)، فهذه الألفاظ تشي بالطرب والنغم والانتشاء، وهي عاكسة لمخزون الفرح المتسلط على نفس الشاعر ووجدانه، ومن ناحية أخرى نجد ألفاظ (العمر- وجداني- عشق- أحلام- فجر) تشعر بالدفع والسكينة المتحققة في حياته، والتي أهلتها لذلك النغم والطرب الذي عبر به بألفاظ أخرى، فالشق المعجمي يظهر دلالات الأثر النفسي الكامن في وجدان الشاعر ويجلي فكرته، وكذلك نلمح أن قصر النص يدل دلالة واضحة على رغبته في البعد عن التكلف والإطناب غير المجدي وتكرار المعاني والصور بما يعود على النص بالسطحية ويخفي ذلك الأثر النفسي المتحقق في نصه، ونرصده حضور "الهيئة الجمالية المعبرة، التي تثيرها الكلمات في الفن التعبيري، والحركات والسكنات في الصفات والمعاني الظاهرة...، وبالنظر إلى العمل الفني عامة نجده يتكون من عناصر باكتمالها يمكن تقييم العمل الفني، ولعل أهم هذه العناصر: الخيال والصورة، والمادة التي هي الواسطة التي يتجسد فيها المضمون وما ينطوي عليه من تعبير انفعالي ودلالة معنوية أو فكرية"^(١)، وقد حضر معالم التكافؤ والتواؤم بين العناصر الشعرية في هذا النص، مفصحة عن مدلولات التفاضل والأمل والسعادة على نحو ما أشرنا آنفًا.

وتتجلى معالم الفرح والسرور والتفاؤل في قصيدته (فاطمة)^(٢)، التي بعث بها لصديقه الشاعر إبراهيم طالع الأملعي لتهنئته بفوز ديوانه (فاطمة) بجائزة أبها، حيث يقول:

وتظل تغدق من نعيم

حنانها نبضًا

لتمنحك السعادة

فاطمة

من قال إن الأم

حين تغيب

تمحو ذكر

من عشقت وتنسى

(١) رضية بنت عبد العزيز، الأسس الجمالية في النقد الأدبي عند الجاحظ، ماجستير، جامعة أم القرى، 2002م، ص189.

(٢) حسين أحمد الزيداني، ليس إلا.. شعر، ص96.

عالمه؟!

تطفو على لغة النص معالم البهجة والفرح والتفاؤل، وقد عبر الشاعر حبه بومضة تحمل معاني التهنية الممزوجة بدلائل الأخوة، وقد انعكست روح الشاعر على ألفاظه المدللة على هذا المعنى (تغدق - نعيم - السعادة)، وفيها دلالات التفاؤل والفرح، وانتقل إلى إلقاء إشارة موجهة منه للشاعر يفصح فيها للمتلقي أن الديوان الفائز جاء بعنوان (فاطمة) وهي أمه التي ربما أفاض في مناجاتها بقصائده، أو أن أغلب القصائد داخل الديوان موجهة لها، والغاية أن نقرر حضور البعد النفسي الدال على التفاؤل وانعكاسه على النص الذي حمل عنوان رمزياً تتعدد دلالاته، أول هذه الدلالات أنه هو عنوان الديوان الفائز بالجائزة، وثانيها هو اسم أم الشاعر كذلك، وثالثها اقتصار هذا العنوان على التهنية بفوز الشاعر بديوانه المذكور.

المطلب الثاني: دلالات الخطاب الباعث على الألم وأنماطه.

أشرت في المبحث السابق أن دلالات الأسى والألم حاضرة في هذا الديوان بصورة مركزة، إذ عدد الشاعر الأنماط والنصوص الدالة عليه بين موضوعات الرثاء والأسى الناتج عن مساوئ الحياة ومتاعبها، فقد يكون الألم ناتج عن الفقد والموت لعزیز أو قريب أو قائد كتلك القصائد التي قالها الشاعر في رثاء ابن خاله أو أحد الأمراء الذي مات إثر حادث أليم، وقد يكون الأسى ناتج من الهم العام أو الوجدان الجمعي بسبب بعض السلوكيات التي تعمل على العبث في المجتمعات وتصيب بالضيق والضجر، ففي النصوص المعبرة عن هذه الأغراض والمعاني يجد الشاعر نفسه مأسوراً للنص مخلصاً لدلالاته بسبب تحكم الأسى منه وتسلطه على قريحته ووجدانه، والشاعر يدرك إدراكاً تاماً بما قرره الجرجاني قديماً "أن لا نَظْمَ في الكَلِم ولا ترتيب، حتى يُعَلَّقَ بعضها ببعض، وَيُنْبَنَى بعضها على بعض، وتُجْعَل هذه بسبب من تلك"^(١)، أي أن الشعر يسيل منه ويقطر من مداد قلمه بتحكم قسري من وجدانه العاكس للأثر النفسي الذي أهل قريحته وأعددها للنظم.

نرقب معالم الألم والمعاناة النفسية متسلطة على بعض النصوص، إذ لا يسير وجدان الشاعر على وتيرة واحدة كحال كل البشر، غير أن الشعراء أكثر إحساساً بالمعاناة، وأكثر انتشاءً بالسعادة، لأن الله وهبهم القدرة على التعبير عن خلجات النفس وما يؤثرها من الأمور، لذلك نجد الأسى متسلط على النص الذي عنوانه باللفظ المباشر الدال على مكنونه (أسى)^(٢)، حيث يقول في مطلع القصيدة:

ماذا يخبئ هذا الليل؟

كل أسى

والعابرون؟

أضاعوا الدرب حين قسا

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني - القاهرة، ط3، 1993 م، ص55.

(٢) حسين أحمد الزيداني، ليس إلا .. شعر، ص55.

ونبضهم؟

لم يزل يشقى بغريته

وقد تألى عليه القلب

وانتكسا

والوحي؟

ندَّ به الساهون في فتنٍ

والفجر؟

جافى ضياءً فيه

والتبسا

يتحكم الأثر النفسي صياغة النص بصورة واضحة، بخلاف المعجم الشعري الذي تحمل ألفاظ تنم عن الأسى والحزن وعدم الرضا بواقع مرير غير متزن؛ نجد الشاعر اعتمد بصورة مركزة على أسلوب الاستفهام الذي يبعث على استنكار هذا الواقع ورفضه، هذا بالإضافة إلى الاعتماد على التناص الديني المقتبس من القرآن الكريم، إذ عمد الشاعر إلى نموذجين أحدهما أفسد في الأرض وأضر بأهله وقتل أخاه (قاييل)، والآخر عانى مرارات الحزن والأسى بما فعله أناؤه بأخيهم (يعقوب)، والجمع بين الصورتين المتناقضتين جاء عن قصيدة من الشاعر ليشير إلى ترسخ حضور النموذجين (الظالم والمظلوم) الجاني والمجني علي واستقرار الفساد في الأرض عبر أزمنة متباعدة، حيث يعبر عن ذلك في المقطع الثاني من القصيدة بقوله:

ومنه (قاييل) يحسو

كأس سكرته

ما زال؟

يشعل نار البغي صبح مسا

وتلك أحزان يعقوب

قد ارتجفت في كل قلب

وذئب في الحشا

حبسا

فالمقابلة بين المقطوعتين تظهر معاناة الشاعر وتأسيه على هذه الحال التي يعيشها المجتمع، وبهذا نجد الأثر النفسي للشاعر قارب من خلال الأساليب بين الصور الشعرية المعبرة عن وجدانه والمفصحة عن مراده، وهذا يحيلنا إلى أهمية الوحدة

العضوية التي تعمل على إظهار تلاحم النص وتكامله من خلال عناصر فنية متعددة يمسك بزمامها جميعاً الأثر النفسي المتحكم في رؤية الشاعر لما حوله، ف"الوحدة العضوية ليست في الحقيقة إلا وحدة الصورة، ووحدة الصورة هي بالضرورة وحدة الإحساس أو هيمنة إحساس واحد على القصيدة كلها، وعلى هذا فالوحدة العاطفية هي دليلنا على تحقيق الوحدة العضوية في العمل الفني"^(١)، وهذا ما وقفنا على معاملة في هذا النص الشعري للشاعر حسين أحمد الزيداني، إذ هيمن إحساسه على رؤيته الشعرية وأخرج نصه بجملة من الصور والتراكيب يخال المتلقي أنها صورة واحدة.

ويقف الشاعر في نهاية المطاف مستشعراً لدلالات الأسى التي تحمل على اليأس والقنوط، ويرسل لنفسه وللمتلقي وميضاً من النور ليتصبر على مرارات الحياة وعذاباتها، حيث يقول في ختام قصيدته:

فأين نمضي؟

إلى حيث المدى أمل

وحرقة الغبن؟

منها أشعلوا

قبسا

حضر أسلوب الاستفهام من بداية النص إلى نهايته بحثاً عن الخلاص من هذه الأوضاع المزرية، وقد ختم الشاعر نصه بما يراه حلاً مناسباً، بائاً للأمل الذي يحطم به اليأس المتسلط على نفسه والذي تتضح معاملة من النص، فيشير إلى أن الأمل لا يزال موجوداً، ما دامت تدب في الجسد الروح، قيس النور لا بد أن يتسع بعد الظلمة مهما طال.

المطلب الثالث: البعد النفسي وأثره في تشكيل الموضوع الشعري والنص الكلي.

الموضوع الشعري ينتج عن رؤية نفسية في المقام الأول، فما من شاعر يشرع في إنتاج نصه قبل اكتمال الفكرة المكونة للموضوع الشعري، فأول أركان النص هو بروز الموضوع وبعدها يعمل الشاعر على استحضار قدراته النفسية ورؤيته العقلية المشكّلة للمعاني والأخيلة التي تتواءم مع طبيعته، ولعل هذا ما أشار إليه النقاد بفكرة الصورة الكلية، أي الصورة والرؤية العامة للموضوع الشعري، فإن "نقدنا القديم فهم إلى حد ما الصورة بمعناها الكلي الذي نعرفه اليوم بالإضافة إلى المعنى الجزئي"^(٢)، الذي يظهر أمام المتلقي من خلال رؤيته لمفردات النص وعناصره الجزئية ليرز في حلة متكاملة تفضي إلى الموضوع العام للنص وتتعلق معه.

ولعل ابن طباطبا العلوي كان أكثر دقة في تحديد هذا المعنى الموضح لماهية الموضوع الشعري وتكون فكرته، حيث يقول في ذلك: "فإذا أراد الشاعر بناء قصيدته محض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرًا، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه. فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبتته، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني...، فإذا أكملت له المعاني، وكثرت الأبيات، وفقَّ بينها بأبيات تكون نظاماً لها،

(١) محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، النهضة العربي - بيروت، 1979 م، ص 110.

(٢) عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في النقد الشعري، دار العلوم للطباعة - الرياض، ط 1، 1984 م، ص 227.

وسلكًا جامعًا لما تشبَّهت منها"^(١)، وهذا خير ما تتمثل به لإظهار الأثر النفسي للشاعر على تكوين الموضوع الشعري، فهو الموجه له في اختيار ما يناسبه من ألفاظ وأساليب وأخيلة وموسيقى، كي يخرج النص حامل لتلك الصورة التي يقصدها الشاعر ويلقي بها في ذهن المتلقي.

يتوجه الشاعر بموضوعه الشعري لمخاطبة أنماط متعددة من جمهور قرائه، فمنهم من يتلقى منه النص بمشاركة وجدانية إن كان النص ناتج عن الوجدان الجمعي كتلك القصائد التي تلقى في التغني بالأوطان والمناسبات، وقد يكون تلقي القارئ برؤية فنية لأن النص تطغى عليه معالم التأثير النفسي المععمق من الشاعر، فغالبًا لا يشارك القارئ هذه الحالة النفسية المبتوثة في النص ولكنه يطرب لها ويتنشي بها لأنها حملت مشاعر الشاعر وأحاسيسه المترجمة لبعده النفسي، فمن أنماط الموضوعات الشعرية الوطني قصيدة (ترانيم البياض)^(٢) التي يتغنى فيها بالوطن العزيز إذ يقول:

كما الإصباح

وضاءً نقيًا

تُشع على الدنيا، تأتي

الدنيا

تعيد إلى الحياة

شفيف فرح

يرتل فجر عزتها

نديا

ظهر النص الكلي في هذه القصيدة متكاملًا متوائمًا مع البعد النفسي العاكس للموضوع الشعري، فعنوان النص (ترانيم البياض) يجمع بين فكرتين وإطارين، فالترانيم تشير إلى التغريد والتغني والانتشاء والسكينة النفسية، والبياض يشير إلى الأمن والسكينة والأمل والإشراق، وكلاهما يعكس حالة النفس المطمئنة إلى واقعها ومعيشتها في هذا الوطن، لذلك نجد النص بجملة يدور بأخيلته وأساليبه وتعبيرات وصوره حول الركيزتين اللتين ضمنهما الشاعر في عنوان نصه، وهذا العنوان الناتج عن الموضوع المكتمل في ذهنه، والمتوائم مع نفسه المحبة لوطنه، وبذلك نفطن إلى أن "كل نص قصيدة أو ديوان يهيمن عليه نص كلي، ويسوده، قد يختلف، بدوره، من حالة نفسية إلى أخرى لدى الشاعر، وحسب اختلافات المناخ السائد في النص وحوله"^(٣)، وبذا تتجلى معالم الأثر النفسي في تكوين الموضوع الشعري وتحديد معالمه في نفس الشاعر.

(١) ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تح: عبد العزيز المانع، مكتبة الخانجي - القاهرة، ص 7.

(٢) حسين أحمد الزيداني، ليس إلا .. شعر، ص 48.

(٣) يوسف نوفل، مدارات النص الكلي، ص 11.

يستقي النص وهجه وحرارته من نفس الشاعر ووجدانه، ذلك الوهج الذي نجده مبثوثاً في ثنايا النص كاملاً بدءاً من العنوان عتبة النص الأولى وصولاً إلى خاتمة النص التي يضمنها الشاعر رؤيته الخاصة وخلاصه المنطقي من موضوعه، فبخلاف عامل الموضوع الشعري والأثر النفسي المكون له نقف أمام قضية تكامل النص وظيفته الموحية بتناسق عناصر على مستويات عدة، تلك القضية التي توقفنا على الأثر النفسي الفعلي في النص، فالقصيدة التي تتحقق فيها الوحدة ترتبط عناصرها جميعاً كما يرتبط الجذر والساق، والأغصان والأوراق، فيؤدي كل عنصر فيها وظيفة حقة غير منفصلة عن الوظيفة التي يقوم بأدائها عنصر آخر، بحيث تسير هذه الوظائف مجتمعة في اتجاه واحد، وتؤدي إلى غاية واحدة هي الأثر الكلي الموحد الذي تولده القصيدة في نفس القارئ^(١)، وهذا ما نشير إليه بمصطلح النص الكلي على مستوى القصيدة، أو النص الكلي على مستوى الديوان، فعلى مستوى القصيدة نجد الشاعر قد وفق إلى حدٍ كبير في إبراز موضوع كل نص على حدة، رابطاً بين العناوين والنصوص برؤية فنية بديعة، فلننظر إلى قصيدته المعنونة بـ(قلق المواسم) إذ يقول فيها:

وأسمع ما يحدث

عنه قلبي

فيومئ من ركام

الروح نرف

ويتبع لهفتي

ظماً تمادى

وبي قلق المواسم، حان

قطف

وفي حمى التجافي

بتُ نصفاً

يئُ، وذاب من شكواي

نصف

فهل تمحو القصيدة

ما أعاني

ويغسلني من الوعناء

(١) أحمد مطلوب، دراسات بلاغية ونقدية، ص 554.

حرف؟

إن المتأمل في هذا النص يستشعر أنه أمام لوحة فنية بديعة، من عنوان القصيدة نقف على أن الشاعر سيث قلق يعتره في مواسم معينة، يحضر في نفسه إذا ما توفرت معطياته الموسمية الباعثة على حضوره، ويتسلط على نفسيته هم أفصح عنه في ثنايا النص، فهو يتعنى ويقاسي هموم ألت بقلبه، ويستجدي أي شيء يساعده في البرء من هذا الألم، فتعبيراته العامة تشي بقلقه المتتابع (ركام- نرف- لفة- قلق- ظمأ- حمى- التجاني- شكوى- أعاني- وعثاء) كل هذه ألفاظ محملة بآلام وأوجاع شملت النص بأسره، هذا فضلاً عن التصوير الخلاب الذي حمل الشاعر على أن يصف لنا قلبه وهو يحادثه بهموه، ويومئ إليه من ركام الهموم وغياباتها، ونرى روحه وهي تنزف، وتمادي الظمأ في العصف به، وانقسام جسمه إلى نصفين، نصف يئن ويتألم مما ألم بالقلب، ونصف ذاب من ألم التجاني ومرارته، ونراه أخيراً يتوسل إلى القصيدة لتخفف عنه أوجاعه، ويناجي الحرف ليغسله من وعثائه، فالنص محمل بالصور الشعرية والأخيلة المعبرة عن الموضوع الشعري والعاكسة للبعد النفسي للشاعر، "فالفنان ككل شخص آخر قد يعاني من حالة مرضية، وقد يتألم لسبب أو لغيره، لكنه ليس مجنوناً، لأنه حين يبدع يكون في حالة من الصحة واليقظة النفسية الواعية بكل ما في الواقع من حقيقة"^(١)، وفي هذا الترابط بين جنون العاطفة وعصفها بوجدان الشاعر وواقعية رؤيته وتعبيراته المفصحة عن بعده النفسي يكمن سر الإبداع، وتظهر براعة النص وجمالياته.

يظهر الشاعر الأسى على صديقه الذي فقد النظر، في قصيدة محملة بالأسى ومكدسة بالصور الشعرية رغم صغر النص، وقد نقف على معالم تلك الأحزان التي تسلطت على وجدان الشاعر من العنوان الرامز إلى الاستفهام والتعجب العاكس في آن الدهشة والحيرة، فقد ابتدأ خطابه مبكراً منذ العنوان الموجه للآخر (ما بال عينيك؟)^(٢)، ومن خلال ذلك تتحدد معالم الموضوع الشعري الذي يتعالق مع اتجاهات شتى، فيمكن أن نعتبره من شعر الإخوانيات، ويمكن أن نعتبره للتسلية وبث المواساة لرفيق ألم الشاعر ما حل به، ولعلنا نفطن إلى دلالات النص الشعري من خلال سبر أغوار العنوان والوقوف على محدداته ويمكن أن نستجلي معالم النص الكلي من الصياغة والأسلوب الاستفهامي الباعث على الدهشة والاستنكار، والاستنكار ليس على قدر ألم بصاحبه فأذهب بصره؛ وإنما على ما ترتب على ذلك من آلام وأضرار نفسية، حيث يقول الشاعر في قصيدته:

ما بال عينيك! هل ضاقت

بها الحيل؟

مما ترى من زمان بات

يشتعل

وراعها الغبن تشقى

فيه أفئدة

(١) عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص 32.

(٢) حسين أحمد الزيداني، ليس إلا .. شعر، ص 75.

والليل في حقه الموار

ينسدل؟

افتتح الشاعر قصيدته بمرارة التساؤل الذي جعله عنواناً لنصك، مستفهماً مستخيراً عن ذلك الخنوع الذي ألم بعينه وجعلها تفقد الإبصار دون أن تكمل معه رحلته حتى نهايتها، ويجنح الشاعر في تساؤله الموجه لصديقه مستجدياً منه الإجابة بالنيابة عنها هل ضاقت بها الحيل؟ ألم تجد عينك حيلة غير حجب البصر للتعبير عن مرارته مما تشاهده وترمقه من أحوال ومشاهدات؟ يعتمد الشاعر في خطابه إظهار الأسى مع التسلية لرفيقه، وجعله بين الوجهتين له باعته الخفي الذي ينهض على الإشفاق والحسرة من هذه الفجعية، وقد أشار في هذه المقطوعة إلى ما يظهر مارة الألم مما ألم برفيقه ومما تشاهده أنظار الأصفياء والمصلحين من أحوال سيئة، ففي ألفاظ (يشتعل - الغبن - تشقى - الليل - حقه - ينسدل) تظهر تلك الرؤية الكلية التي تحمل الشاعر على إبراز ألمه مع الرفق بالمفجوع من خلال إيجاد العذر لعدم تحمل عيناه مرارات ما تشاهده، فينتقل مباشرة من مخاطبة الآخر إلى إبراز مساوئ الحياة عامة، وكأنها أعداء لفقدان بصره، فيقول:

أم استفاق ضياء

العين منكسراً

يأبى انشطارك، والآلام

تقتل

وعز ألا يرى ما فيك

من أمل

وحوله الأمنيات البيض

تحتفل

تظهر الرؤية المناسبة من الشاعر في هذه المقطوعة في إطار التسلية؛ إذ يوجد عذراً مناسباً لفقدان البصر في أن عيناه أثبت أن تعود عليه بالضرر مما تعكسه من مشاهدات تؤلم قلبه وتجهد فكره، فلم تقبل بانشطاره وتعنيه مرارات ربما تودي به، ولذلك أفاض الشاعر في باقي النص من صادق المواساة وإظهار التصبر والجلد وحث رفيقه على ذلك، إذ له أسوة بهذا في يعقوب النبي الذي ابيضت عيناه من الحزن على فقد ولده يوسف، حيث يقول:

فآب، كي يرتوي مما

يفيض به

جنباك من وهج أنقى

ويكتحل

وقد سها فيك،

مفتوناً بجنته

وفي بياضك صلي، وهو

يبتهل

وشف، وهو يناجي

بئر يوسفه

وتقتفي صبر يعقوب

وتمتثل

تتمثل براعة هذا النص في جملة من العناصر، أهمها التوافق التام بين عتبة العنوان والنص الشعري، فقد جاءت العتبة مفصحة عن مكنون النص، وكذلك أدى هذا التوافق إلى إظهار الموضوع الشعري الذي اتجه إليه الشعر ونفسه محملة بالمشاعر الجادة، والمضطربة كذلك بين إطار الألم والحزن من جهة، والتبصر في إظهار ذلك لعدم إجهاد المتلقي الأول (رفيقه الشاعر إبراهيم حلوش)، فشرع في التوجه بخطابه نحو تسليته وتهوين عليه، مع الاستعانة بالتراث وجلب ما يتوافق مع حالته، فأبرز التعالق النصي من خلال ما ألم بنبي الله يعقوب من أضرار وأهمها ضرر العمى في فجيعته بفقد ولده يوسف عليهما السلام.

إن النص الشعري يهب على وجدان الشاعر كالإلهام الناتج عن انشغاله الفعلي بقضية أو موضوع أو حادثة أو أي شيء يشعل تلك الجذوة في عقله، فتحدث الاستجابة التلقائية منه مع مجموعة من التفاعلات الداخلية غير المرئية ولكن الشاعر على دراية بحدوثها داخله، فينتشي إذا كان الأمر يبعث على الانتشاء والطرب، ويأسى إن كان يبعث على الأسى، إلى آخر ذلك من الدلالات، وفي مثل هذا النص الذي نحن بصددده يألم الشاعر لألم صاحبه، ويتأسى لأساه ويكابد معاناته، فقد انتهت الآلام انتهائاً، واستلبته الحالة من واقعه استلاباً، فلا يرى إلا ما تمليه عليه هذه الرؤية التي تدور بوجدانه، وهنا نقف على موطن الأسى الممزوج باللذة الشعرية العاكسة للحالة الوجدانية والبعد النفسي، "فعندما تنتهب نفس الشاعر الآلام يجد عوضاً عنها تلك اللذة التي يستمتع بها وهو في نشوة الوحي، وفي هذه النشوة يكمن مرض الشاعر ودواؤه، ولا بد أن يعني هذا أنه بسبب تلك الآلام كان الوحي، ومع الوحي كانت النشوة، أي أن المعاناة كانت السبيل إلى الوحي أي الإبداع، وكان الإبداع وسيلة لإخضاع تلك الآلام والتلذذ بها، فلولا الآلام ما كان الوحي، ولولا الوحي ما كانت اللذة"^(١)، وهذا ما انعكس صده جلياً في هذا النص بصورته الكلية، المتكونة من عناصر شتى أهمها العنوان والنص والموضوع والأسلوب وغيره.

إن الشعرية تقتضي شيئاً من التكامل بن الشاعر ونفسيته وموضعه الشعري، وذلك التكامل ينعكس على تكاملية النص الشعري بجوانبه وعناصره، ولعلنا وقفنا على ملامح ذلك في النماذج الشعرية التي أوردناها على الظواهر الشعرية المعبرة عن حضور البعد النفسي وتأثيره في النص الشعري لدى الشاعر حسين أحمد الزيداني، ويبقى ملمح أخير نود الإشارة إليه، يتمثل في النص

(١) عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص 29.

الكلي للديوان الشعري (ليس إلّا.. شعر)، إذ يمكننا الوقوف على معالم تكاملية النص الكلي، فبالرغم من اختلاف الموضوعات الشعرية التي يجمعها الديوان إلّا أننا نستشعر أنها صادرة من وجدان واحد ولها بعد نفسي نتج من عقلية واحدة، ساعدته على إظهار المقاربة الفعلية لنصوصه مع عنوان الديوان وعتباته الكلية، فكل نص من النصوص الشعرية ما هو إلّا شعر يعكس رؤية شاعر فرح وحزن، وأحب وكره، وسعد بوطنه وتأسى من بعض أخلاقيات مجتمعه، وهام ببقاعه وبلدانه وآلمته بعض الأماكن، وأسرّه قرب بعض الناس وأهمه بعد آخرين، فما كل هذه المعاني المترجمة إلى قصائد شعرية إلّا نفس شاعر انعكست على وجدانه وتحققت في واقعها النهائي في شكل نصوص جمعت في ديوان واحد، عنوانه خير مفتح عن مكنونه (ليس إلّا.. شعر).

الخاتمة.

من خلال تلك الدراسة التي اعتمدت على استجلاء معالم البعد النفسي وجمالياته في ديوان (ليس إلّا.. شعر) للشاعر حسين أحمد الزيداني توصلت إلى جملة من النتائج المهمة، التي يمكن أن تجد من يصغي إليها من الباحثين المتخصصين في حقل الدراسات الأدبية والنقدية، أوجزها في النقاط الآتية:

■ هناك اقتران وثيق بين البعد النفسي للشاعر ووجدانه، وذلك الاقتران لا ينفصل، إذ يتشكل الوجدان وفقاً للبعد النفسي والحالة العامة المسيطرة عليه، كما أنه يحدث خلط بين الحالة النفسية المطبقة على الإبداع الأدبي باستعارتها من الدراسات النفسية وعلم النفس، والوجدان الذي يمثله ذلك الرابط المتصل بين العقل والقلب لدى كل إنسان.

■ أثبتت الدراسة التطبيقية أن عتبة العنوان تتعالق مع البعد النفسي للشاعر بصورة مركزة، إذ تظهر من خلالها الحالة النفسية التي تتملك وجدانه حال إنتاجه النص، فيتضح ذلك على العنوان الدالّ الأول للنص والعلامة المفصحة عنه.

■ تختلف دلالة عتبة العنوان وفقاً للرمزية والمباشرة التي يقصد إليها الشاعر لدواعٍ فنية ودلالية ورمزية، إذ غالباً ما يهرع الشاعر إلى إضفاء سمة المباشرة على العنوان في نصوصه التي تحمل دلالات الأسى والألم والحزن والفقد، وتتخلل العنوان بعض الرمزية الخافتة والمقصودة في العناوين الدالة على الأمل والبهجة.

■ إن دراسة النص الأدبي بصورة عامة والنص لشعري بصورة خاصة يقتضي الوقوف على عناصر النص ومفرداته، ويجب على القارئ المتلقي أن يدلف إليه من بابيه الذي يتمثل في العنوان، فعنوان النص هو المؤول الأول والمفصح الرئيس لدلالات النص المتعددة، وجدير بديوان الشاعر أن يقام بحث متكامل لدراسة عتباته النصية كلها في دراسة مستقلة.

■ النص الشعري عالم تتسلط عليه العديد من الأمور التي قد تضفي عليه غموضاً أو رمزية مقصودة، أو قد تتسلط عليه بعض الإيحاءات التي تشي بمباشرة وتلقائيته، وكل نمط له أسسه الفنية وعناصره المفصحة عن جمالياته، والغاية في أي من أنواع النصوص الشعرية هو الدربة والتمرس بالبعد النفسي للشاعر ومعرفة الظروف العامة التي أنتج فيها النص.

■ لم تقف الدراسة على فارق قوي يوضح انزعال العنوان عن النص، عدا بعض الإيحاءات الرمزية التي يقصدها الكاتب فيحدث مفارقة مقصودة لاعتبارات جمالية، فالتعالق النصي واقع بين العنوان والنص في ديوان الشاعر حسين أحمد الزيداني، والعناوين -في الغالب- متفقة في دلالتها على البعد النفسي الذي يوحى بالأسى أو السعادة على حدٍ سواء.

■ إن الموضوع الشعري أو العناصر المترجمة للبعد النفسي للشاعر، خاصة وأن النص يتحدر من فكرته ويولد من رحمته، وتأتي باقي العناصر الشعرية تابعة للموضوع الشعري المترجم لوجدان الشاعر والمفصح عن مكنوناته النفسية.

■ تجلت معالم النص الكلي على مستوى النص/ القصيدة/ وعلى مستوى الديوان، وذلك من خلال التكامل النصي في كل قصيدة بين عناصرها العامة، وكذلك الاتفاق النصي بين قصائد الديوان في جمعها بعنوان واحد، كل نص يصلح أن يعنون منفردًا بالعنوان العام للديوان (ليس إلا.. شعر)، وفي ذلك تتجلى الرؤية الفنية للشاعر في اختيار عنوان الديوان وربط قصائده بفنية واقتدار.

■ أوصي المتخصصين من الباحثين والباحثات بالعمل على دراسة ديوان أي شاعر في إطار نظرية النص الكلي، والتي تعنى برصد الاتفاق والتقارب بين النصوص الشعرية المضمنة في ديوان واحد، وإبراز الرؤية الفنية والجمالية للشاعر في انتقاء قصائد واختيار العنوان العام للديوان، هذا فضلاً عن اتفاق النصوص بحملتها مع العتبات النصية الأخرى الخارجية والداخلية، فحتمًا سيقف الباحثون على دلالات نفسية قد لا يقفون عليها بغير هذه الرؤية.

● قائمة المصادر والمراجع.

● المصادر:

- حسين أحمد الزيداني، ليس إلا.. شعر، مؤسسة الانتشار العربي - بيروت، ط ١.

● المراجع:

- أحمد مطلوب، دراسات بلاغية ونقدية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام - العراق.
- أبو بكر الصولي، أدب الكتاب، تح: محمد بحجة الأثري، المطبعة السلفية - مصر، ١٣٤١ هـ.
- خالد حسين حسين، في نظرية العنوان: مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، دار التكوين.
- رضية بنت عبد العزيز، الأسس الجمالية في النقد الأدبي عند الجاحظ، ماجستير، جامعة أم القرى، ٢٠٠٢ م.
- زياد محمود مقدادي، تلقي شعر التراث في النقد العربي الحديث، عالم الكتب الحديث - الأردن، ط ١، ٢٠١٢ م.
- السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي، مكتبة المتنبي - القاهرة.
- صادق القاضي، عتبات النص الشعري في المعاصرة الشعرية، وشعرية المعاصرة، أروقة للدراسات - القاهرة، ط ١.
- ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تح: عبد العزيز المانع، مكتبة الخانجي - القاهرة.
- عباس العقاد، ابن الرومي، مؤسسة هنداوي، القاهرة.

- عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في النقد الشعري، دار العلوم للطباعة- الرياض، ط١، ١٩٨٤م.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني- القاهرة، ط٣، ١٩٩٣م.
- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه: دراسة ونقد، دار الفكر العربي- القاهرة، ط٢، ١٩٨٥.
- عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة- بيروت.
- علي الورد، خوارق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة، مكتبة دجلة والفرات- بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.
- فرويد، محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، ت: أحمد عزت، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٨٧م.
- فوزي عيسى، النص الشعري وآليات القراءة، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية، ٢٠٠٦م.
- محمد إسماعيل حسونة، النص الموازي وعالم النص: دراسة سيميائية، مجلة جامعة الأقصى، ع ٢٤ مج ١٩، ٢٠١٥م.
- محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، النهضة العربي- بيروت، ١٩٧٩م.
- محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.
- محمود عبد الحليم، عتبات النص الشعري الحديث في رؤية يوسف نوفل، المجلة العلمية بكلية الآداب-جامعة طنطا، ع ٤٣، ٢٠٢١م.
- مصطفى بشير القط، البعد النفسي للصورة الشعرية، مجلة فكر وإبداع، ع ٥٢، ٢٠٠٩م.
- يوري لوتمان، تحليل النص الشعري، تر: محمد فتوح، النادي الأدبي الثقافي- جدة، ط١، ١٩٩٩م.
- يوسف الإدريسي، عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، الدار العربية للعلوم، ط١، ٢٠١٥م.
- يوسف نوفل، طائر الشعر، الهيئة العامة لقصور الثقافة- القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.
- يوسف نوفل، مدارات النص الكلي، دار العالم العربي- القاهرة، ٢٠١١م.